African Journal of Advanced Studies in Humanities and Social Sciences (AJASHSS)
المجلة الإفريقية للدراسات المتقدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية
Online-ISSN: 2957-5907
Volume 5, Issue 3, 2026
Page No: 456-468
Website: https://aaasjournals.com/index.php/ajashss/index
Arab Impact factor 2025: 0.83 **SJIFactor 2024: 6.856** **ISI 2025: 1.191**

The Role of Portuguese Explorers in Exploring the African Coasts: From the Fifteenth to the Seventeenth-century AD

Fatima Mohamed Harhour *
Department of History, Faculty of Arts, Misurata University, Misurata, Libya

دور الرحالة البرتغال في كشف السواحل الأفريقية خلال الفترة من القرن الخامس عشر وحتى القرن السابع عشر الميلادي

فاطمة محمد محمد هرهور *
قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة مصراتة، مصراتة، ليبيا

*Corresponding author: fatmtmhmdm747@gmail.com

Received: May 27, 2026	Accepted: August 08, 2026	Published: August 19, 2026

Abstract:
Portuguese exploratory voyages along the African coasts between the fifteenth and seventeenth centuries represented a major historical turning point in the expansion of European colonialism beyond its traditional boundaries. These voyages were not the product of sudden or isolated events; rather, they constituted systematic undertakings shaped by the gradual accumulation of geographical knowledge, successive advances in navigational techniques, repeated maritime experiments, and direct interaction with African societies.
Portuguese exploration developed through several successive stages that differed in their nature, motives, and objectives. It began along the northwestern coast of Africa and gradually extended southward to the Cape of Good Hope, before proceeding eastward along the Indian Ocean coast to encompass regions such as Mozambique, Zanzibar, and Mombasa.
Within this context, Portuguese explorers—who often combined the roles of sailors, soldiers, merchants, and missionaries—played a central role in documenting these voyages, producing maps, and establishing trading posts. They also contributed to the formation of a new European perception of the African continent that differed considerably from earlier representations.
This study aims to identify the motives underlying the Portuguese geographical explorations, trace the successive stages of their expansion along the western and eastern coasts of Africa, and assess their resulting consequences. The study adopts the historical method and draws upon the available primary sources and recent historical scholarship. It reaches a number of historical and analytical findings based on the examination and interpretation of a range of sources and references from which the study derived its scholarly material.

Keywords: Exploratory Voyages, West African Coast, East African Coast, Portugal, African Continent.

الملخص
مثلت الرحلات الاستكشافية البرتغالية للسواحل الأفريقية خلال القرنين الخامس عشر والسابع عشر منعطفًا تاريخيًا ونقطة تحول في تاريخ توسع الاستعمار الأوروبي خارج حدوده التقليدية؛ إذ إن هذه الرحلات لم تكن وليدة أحداث لحظية وآنية مفاجئة، بل كانت عمليات ممنهجة تشكلت نتيجة لتراكم منهجي للمعرفة الجغرافية، ومراحل متعددة لتطوير تقنيات الملاحة، ومحاولات وتجارب بحرية متكررة، ونتيجة تفاعلات مباشرة مع المجتمعات الإفريقية أيضاً؛ فقد تطوّر هذا التوجه الاستكشافي على مراحل متتالية متعددة ومتباينة المضامين والدوافع والأهداف، بدأت من الساحل الغربي الشمالي لإفريقيا وامتدت جنوبًا حتى رأس الرجاء الصالح، ثم شرقًا على طول ساحل المحيط الهندي، ليشمل مناطق مثل موزمبيق وزنجبار ومباسا.في هذا الاتجاه، لعب الرحالة البرتغاليون الذين كانوا في أغلب الأحيان بحّارة وجنودًا وتجارًا ومبشّرين في آنٍ واحد، دورًا محوريًا في توثيق تلك الرحلات الاستكشافية، ورسم الخرائط، وإقامة المحطات التجارية، كما ساهموا في بناء وتكوين صورة أوروبية جديدة ومغايرة عما كانت عليه سابقاً صورة القارة الإفريقية.يهدف هذا البحث إلى التعريف بدوافع الكشوف الجغرافية، وتتبع مراحل تقدمها على امتداد الساحلين الغربي والشرقي للقارة الأفريقية، فضلاً عن تقويم الآثار المترتبة عليها وقد اعتمد البحث على المنهج التاريخي، استنادًا إلى ما توفر من مصادر ودراسات تاريخية حديثة. وتوصل البحث إلى

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

مجموعة من النتائج والاستنتاجات المنهجية والمعرفية التي أفصح عنها من خلال الاعتماد على مجوعة من المصادر والمراجع التي استقى منها مادته العلمية.

الكلمات المفتاحية: الاستكشاف البرتغالي، ساحل غرب أفريقيا، الرحالة، ساحل شرق أفريقيا، البرتغال.

مقدمة:

تُعدُّ الكشوف البرتغالية للسواحل الإفريقية، خلال الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر الميلادي، من أبرز العوامل التي أسهمت في إحداث تحولات كبرى في تاريخ العلاقات بين القارتين الأوروبية والإفريقية، كما كان لها أثر واضح في المراحل المبكرة لتشكُّل النظام العالمي الحديث. وقد ارتبط انطلاق هذه الحركة بتراجع فاعلية بعض المسالك التجارية البرية، لا سيما عقب سيطرة العثمانيين على القسطنطينية سنة 1453م، واتساع نفوذهم في شرقي أوروبا، وتحكمهم في عدد من الطرق التجارية التي كانت تربط أوروبا بآسيا. وقد دفع ذلك الدول الأوروبية إلى البحث عن طريق بحرية بديلة تُمكنها من الوصول المباشر إلى أسواق الشرق ومصادر ثرواته، فضلاً عن الدوافع الدينية والسياسية التي صاحبت هذه الحركة. وفي ظل هذه الظروف، تصدَّرت البرتغال حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية، وقادت سلسلة من الرحلات البحرية على امتداد السواحل الإفريقية.

كان من الطبيعي أن تكون البرتغال من أسبق ممالك شبه الجزيرة الإيبيرية لتوسع خارج حدود أراضيها لقيادة حركة الكشف الجغرافي، فقد كانت بلادهم تتمتع بموقع هام لوجودها على الطرق التجارية الرابطة بين موانئ البحر المتوسط وشمال غرب أوروبا، مما جعلها الأقرب إلى السواحل الأفريقية، وهذا بدوره وفر الأموال اللازمة التي ساعدت ملوك لشبونة على توحيد أجزاء بلادهم الداخلية، وجعلتهم يعملون باستمرار للبحث عن طريق يؤدي إلى منابع التوابل في الهند؛ من أجل انتزاعها من أيدى تجار المسلمين، وتوصيلها إلى أوروبا عبر الطرق الإسلامية الواقعة بين البحر المتوسط والمحيط الهندي، وإفريقيا هي ذلك الطريق الذي يبحث عنه مستكشفو البرتغال، وهو ما يظهر حقيقة مدى رغبة البرتغاليين تجنب الاصطدام بطرق التجارة التقليدية التي يسيطر عليها المسلمون.

يعد الأمير هنري الملاح من أبرز الشخصيات المحورية التي ساهمت في انطلاق حركة الكشوفات البرتغالية منذ بداية القرن الخامس عشر، فقد اهتم منذ صغره بالجغرافيا والفلك ودرس الخرائط الجغرافية، بالإضافة إلى اهتمامه ببناء السفن الأمر الذي ساعد على تطور الملاحة والمعرفة بالإبحار عبر المحيطات. في عام 1414م تحركت حملة بحرية بقيادة ملك البرتغال يوحنا الثاني وأبنائه هاجمت ميناء سبته وتمكنت من الاستيلاء عليها 1415، وبذلك تمكنت البرتغال من تأسيس أول قاعدة لها على الساحل الأفريقي، التي اتخذتها مركزًا للانطلاق نحو سواحل أفريقيا الغربية.

تتابعت الرحلات الاستكشافية البرتغالية حيث نجح المستكشف (جيل إنيز)، من تجاوز راس بوجادور سنة 1434م، والوصول إلى نهر السنغال وخليج غينيا، وإنشاء الحصون والمراكز التجارية، كحصن ال مينا، ثم بلوغ (ديجو كاو) نهر الكونغو، وتجاوز (بارثولوميو دياز) راس الرجاء الصالح سنة 1488م, وصولاً إلى رحلة (فاسكو دي جاما) التي ربطت الساحل الإفريقي الشرقي بطريق الهند. نتج عن هذه الرحلات الاستكشافية العديد من الآثار السياسية والاقتصادية والثقافية، التي مازلت تبعاتها قائمة في المجتمعات الأفريقية إلى العصر الراهن.

أهمية الدراسة

تحظى هذه الدراسة بأهمية كبيرة في الدراسات التاريخية المعاصرة، كون إن القضايا التاريخية والسياسية للقارة الأفريقية في منطقة جنوب الصحراء لم تحظ باهتمام الدراسات الأكاديمية بشكل كبير، على الرغم مما يربطنا بها من صلات جغرافية واقتصادية وسياسية، بوصفها جزءًا من هذه القارة، فضلاً عن تشابه الظروف والأحوال والتجارب بين البلدان العربية والإفريقية. فمن المناسب أن تتجه الدراسات الأكاديمية نحو المناطق والقضايا التي لم تنل اهتمام كاف يتناسب وقيمتها التاريخية، لا سيما أن الاستكشافات الجغرافية البرتغالية تعتبر البداية الفعلية للاستعمار الأوروبي الذي جثم على معظم أراضي

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

القارة الأفريقية على مدى أربعة قرون وأكثر ولا زالت أثاره باقية في المجتمعات الأفريقية حتى يومنا الراهن.

أهداف البحث:

تتمثل أهداف الدراسة فيما يأتي:

1. التعرف على الأسباب والدوافع التي جعلت الرحالة البرتغاليون يقومون بالكشوف الجغرافية في القارة الأفريقية.
2. رصد وتتبع مراحل كشف السواحل الإفريقية، وتحليل مساهمة الرحالة البرتغاليين في كل مرحلة .
3. التعرف على أهم النتائج التي أحدثتها الرحلات البرتغالية في القارة الإفريقية.

مشكلة الدراسة:

تتمحور مشكلة الدراسة في الإجابة على التساؤل الرئيس التالي، والذي يتمثل في: ما أهم الرحلات الاستكشافية التي قام بها الرحالة البرتغاليون؟ والذي يتفرع منه التساؤلات الآتية:

1. ما أهم أبرز الدوافع التي ساهمت في توجيه الكشوف الجغرافية الأوروبية نحو القارة الإفريقية؟
2. ما أبرز إسهامات الرحالة البرتغاليون التي أدت إلى كشف سواحل القارة الإفريقية؟
3. ما أهم النتائج المترتبة على كشف البرتغال للسواحل الأفريقية؟

حدود البحث:

الحدود المكانية؛ يركّز البحث على السواحل الإفريقية التي وطئها البرتغاليون: من الرأس الأخضر وغرب إفريقيا، إلى رأس الرجاء الصالح، وصولًا إلى ساحل المحيط الهندي (موزمبيق، زنجبار، ممباسا).

الحدود الزمانية؛ يقتصر نطاق البحث على الفترة الممتدة من عام 1415- تاريخ غزو سبتة، الذي يُعدّ الشرارة الأولى للاستكشاف وحتى عام 1698، عندما تراجع النفوذ البرتغالي بشكل ملحوظ لصالح القوى الأوروبية الصاعدة .

المنهج المتبع:

اتبعت الدراسة الحالية من أجل تحقيق هدفها الرئيسي المنهج التاريخي القائم على جمع المادة العلمية من مصادرها، وتتبع الأحداث في سياقها الزمني، مع الاستعانة بالمنهج الوصفي والتحليلي لغرض وصف الظاهرة المدروسة من مختلف النواحي، وتعزيزها بالتحليلات العلمية وفقًا لمعطيات البحث العلمي، وبما يتلاءم مع أهداف الدراسة.

تقسيمات الدراسة:

تم تقسيم الدراسة الحالية إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها في إعداد البحث، وفيما يأتي توضيح بمضامين مباحثها:

المبحث الأول: البرتغال عشية انطلاق رحلات الكشوف الجغرافية الكبرى.

المبحث الثاني: مراحل كشف السواحل الإفريقية ومساهمة الرحالة البرتغاليين فيها.

المبحث الثالث: نتائج الكشوفات البرتغالية للسواحل الأفريقية.

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

المبحث الأول: البرتغال عشية انطلاق رحلات الكشوف الجغرافية الكبرى:

شـهد النصـف الثاني من القرن الخامس عشـر تطورًا كبيرًا في البحرية البرتغالية، والتي تبلورت في حركة كشوف جغرافية فارقة عن كل ما سبقها من نواحي الانتشار والتفاعل والتأثير والتأثر، ولم يأتي هذا التطور بصـورة مباغتة؛ بل سبقه العديد من التجارب والتطورات العلمية والتقنية والمعرفية الشـاملة التي تضـــافرت فيها الجهود لتطوير علوم الملاحة في المدن الإيطالية، ومن ثم نقل تلك الخبرات إلى البرتغال عبر البحر المتوســط، فضــلاً عن الدور البارز الذي قدمه علماء الفلك في عالم البحر المتوســط -تحديدًا اليهود- الذين نقلوا خبراتهم العلمية من البحر المتوســط إلى البلاط البرتغالي، مثَّلت قفزة نوعية وانقطاعًا لافتًا على المستوى العالمي في ذلك الوقت مقارنة بالعصور السابقة.

إلى جانب الدوافع التقنية الســابقة، شــكلت الدوافع الدينية عاملاً رئيســيًا في ظهور التطورات المتسارعة، فقد تبنَّى رجال الدين والسياسة في البرتغال فكرة وجود "إمبراطورية مسيحية" في عمق قارة إفريقيا، نسـبت -وفقًا لرسـالة عائدة للقرن الثاني عشـر- إلى الكاهن يوحنا" "Prester John، ووجّهت للحاكم البيزنطي "مانويل كومنينوس"، ثم طوّرها الأمير "هنري الملاح" في منتصــف القرن الخامس عشر بعقيدته الثابتة بكل شغف، داعيًا إلى ضرورة إقامة الإمبراطورية المسيحية الممتدة من غرب إفريقيا حتى مصـب "النيل الغربي" أو نيل الزنوجNile of Negros ؛ وفق الاعتقاد السـائد آنذاك، والذي تبين وفق الكشـوف اللاحقة بأنه مصـب نهر الكونغو؛ لذلك لم يكن ذلك التوغل الأوروبي في السـواحل الغربية لقارة إفريقيا مجرد كشـوف جغرافية لعالم جديد؛ بل كان -في حقيقة الأمر- اختراقًا معرفيًّا للحدود العالمية المعروفة آنذاك، والمتفاعلة منذ عصـور تاريخية قديمة، ثم صـار اختراقًا ماديًّا بصـورة تامة في السـنوات اللاحقة، وقد مهَّد هذا الأمر الطريق لولادة عالم "المحيط الأطلســي"، الذي ارتبط -فيما بعد- بحركة الكشوف والتجارة والاستعمار، واتساع حركة الاتجار بالرقيق.(Regina,2000, P.35)

كذلك مما يؤكد على الدافع الديني وراء انطلاق الكشــوف الجغرافية دعم الكنيســة الكاثوليكية لهذا المشــروع بقوة، الذي رأت فيه خدمة لتوســيع نطاق حركاتها التبشــيرية، إذ منح البابا مارتن الخامس (Pope Martin V)(1369-1431م) في عام 1418 البرتغال حق الحصــر الديني والتجاري على الأراضـي التي قد تُكتشف جنوب سبتة، بموجب ما عُرف لاحقًا بـــ مرسوم(Papal Bulls) ، وفي عام 1452 منح البابا نيكولاس الخامس (Pope Nicholas V) (1397-1455م) مرســوماً آخر عرف بـ مرســوم(Dum Diversas) ، وأيضــاً مرســوم (Romanus Pontifex) الذي منحه البابا نيكولاس الخامس لملك البرتغال عام 1455م، وبموجب هذه المراسيم البابوية حصلت البرتغال على سلطة شاملة لغزو وإخضـاع واسـتعباد غير المسـيحيين على طول السـاحل الأفريقي، ويعد أيضـاً الركيزة الأسـاسـية لعصر الاستكشاف الأوروبي، حيث غذى التوسع الاستعماري وتجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي في إطار ما عرف حينها بـ (مبدأ الاكتشاف) .(Eltis, 2000, 24)

تكشف تلك المراسيم عن حقيقة اندماج الدوافع الدينية- المتمثّلة في التبشير ونشر المسيحية ومكافحة الإسـلام- مع الدوافع الاقتصـادية والاسـتعمارية للبرتغال في مشـروع واحد جسدته لاحقاً حركة الكشـوف الجغرافية، وهو المشــروع الذي شــرع في تنفيذه الأمير هنري من خلال رعايته ل مدرســة الملاحة في سـاغريش (Escola de Sagres) ، التي جمعت خبراء في الفلك، ورسّـامي الخرائط، وصـناع السـفن، وترجمـة المؤلفـات العربيـة في الجغرافيـا والملاحـة، مثـل أعمـال الإدريســي ,(Cortesão،1969 ، 87.Vol.1)،كما وقد أســهمت حركة التجارة بدور فعال في الكشــوف الجغرافية، حيث يعود الفضــل للبرتغاليين في كســر حاجز القلق والخوف بداية من المحيط الأطلســي، وعلى رغم مشــاركة عدد من الرحالة الرواد ذوي الجنسيات الأخرى في الرحلات الاستكشافية المبكرة مع رحالة البرتغال، كالإيطاليين والإنجليز والنورمان إلا أن الرحالة البرتغاليين قد أضــفوا عليها طابعًا منهجيًا مســتدامًا، ومن أبرزهم: الرحالة "لانسيلوت مالوسيللو Lancelot Malocello"الذي وصل في العام 1278 إلى جزر الكناري، إضــافة إلى مغامري جنوا الذين أبحروا حتى بلغوا كيب نون Cape Nun قبل عام 1300، كما زار أسـطول "أرمادا لشـبونة" جزر الكناري عام 1341، وبعد خمسـة أعوام من هذه الزيارة غادرت الحملة القطالونية مالوركا Mallorca؛ بهدف الوصــول إلى "نهر الذهب"، رغم أنه لم يُسْـمَع شــيء عنها بعد خروجها، بينما حاول طاقم إحدى الرحلات عام 1416 العودة إلى السـواحل الأوروبية بعد فشـلت الرحلة

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

بقيادة "بيدرو موراليس Pedro Morales of Seville"، غير أنها غرقت قبالة "الساحل البربري Barbary Coast"، وأسر طاقمها، حتى تم -في العام نفسه- دفع فدية عودتهم للوطن، وخلال العودة وقع "موراليس" في يد القائد البرتغالي "يوحنا زركو Joao Zarco" بعد معرفته بكيفية كشف مادیرا Madieraمن أحد الأسرى.(Jayne, 1997, Pp.1-5)

كان الهدف الرئيسي للبرتغاليين هو الوصول المباشر إلى مصادر الذهب الإفريقي، الذي كان يُعرف في أوروبا بـ (ذهب غينيا)؛ فقبل انطلاق حركة الكشوف البرتغالية، كان الذهب الإفريقي يصل إلى أوروبا عبر سلسلة طويلة من الوسطاء: [من مناجم داخلية في غرب إفريقيا إلى مدن مثل تمبكتو، ثم عبر الصحراء إلى سجلماسة وفاس، ومنها إلى الموانئ المتوسطية. وقد قدّر المؤرخ البرتغالي زورارا (Gomes Eannes de Zurara) (1410-1474م) أن ما يصل إلى أوروبا لا يتجاوز عُشر ما يُنتَج في الأصل .(Zurara, 1960, 76)

بفضل السيطرة البرتغالية على الموانئ الساحلية لإفريقيا -مثل ميناء أرغويم عام 1445، وإل مينا عام 1482 الذي أسسهما المستكشف البرتغالي ديوغو دي أزامبوجا (Diogo de Azambuja) (1432-1518م) في غانا الحالية- تمكن البرتغاليين من شراء الذهب مباشرة من التجار المحليين، مما أدى إلى تدفق كميات هائلة من المعدن النفيس إلى الخزينة الملكية، ويُقدّر بعض الباحثين أن البرتغال كانت تستحوذ على ما بين (10-20) طنًا من الذهب سنويًا من ساحل غينيا في أواخر القرن الخامس عشر، وهو ما كان يشكّل نحو 10% من إجمالي الذهب الذي يصل الى جميع البلاد الأوروبية آنذاك (Vieira de Almeida, 2005, 28).

إضافة إلى الذهب، شكّلت تجارة العبيد دافعًا اقتصاديًا متزايد الأهمية؛ فمنذ عام 1441، عندما أعاد البحّار أنطونيو غونسالفيس (Anthony Gonçalves) أول مجموعة من الأسرى الإفريقيين إلى البرتغال(Al-Salimi & Jansen, 2018, 327) ، بدأ نظام تجاري جديد يعتمد على استغلال اليد العاملة الإفريقية في المزارع البرتغالية في جزر الأزور ومادیرا، ثم لاحقًا في البرازيل؛ وقد أشار زورارا في سجل أعمال غينيا (Crónica dos Feitos da Guiné) إلى أن العبيد ليسوا فقط مكسبًا ماليًا، بل وسيلة لنشر الإيمان بين الوثنيين(Zurara, 1960, p112) ، وهذا يبين كيف برّر البرتغاليون استغلالهم الاقتصادي بالخطاب الديني.

من الناحية السياسية، وقد ورثت البرتغال –حالها حال مدينة قشتالة وأراجون- تاريخًا طويلاً في الاتصال والتفاعل مع عالم آخر غير العالم الأوروبي، وحتى بعد استعادة البرتغال منطقة الجرف الواقعة جنوب البرتغال عام 1249، ظلت منطقة جنوب البرتغال متأثرة اقتصاديًا وثقافيًا بعالم شمال إفريقيا الإسلامي، ومِن ثَم استمر وجود المجتمعات المسلمة واليهودية تحت السيادة المسيحية، وتواصلت أيضًا الصلات التجارية مع شمال قارة إفريقيا، فضلاً عن زيادة ثراء دولة البرتغال نتيجة لاستمرار تجارة العبيد الذين حصلوا عليهم في البداية من شمال إفريقيا المسلمة، ومع القرن الرابع عشر بدأت البرتغال بتنظيم الغارات المنتظمة على جزر الكناري بهدف أَسْر سكانها الأصليين، الذين عرفوا باسم (الجوانش). وهكذا يبدو أنه مع استمرار التفاعل البرتغالي مع السواحل الشمالية الغربية لإفريقيا على المحيط الأطلسي؛ زادت في الانخراط مع الصراعات السياسية في شمال القارة الأوروبية، وتشابكات تجاريًا مع المدن الإيطالية الواقعة على ساحل البحر المتوسط الشمالي.(Malyn., 2010, p.3-4)

من العوامل السياسية أيضًا اهتمام ملوك البرتغال -وخاصة بعد وفاة الأمير هنري عام 1460-إلى تحويل الاستكشاف من مغامرة فردية إلى سياسة دولة منظمة؛ فأنشأ الملك أفونسو الخامس (Afonso V of Portugal) (1432-1481م) مؤسسة دار غينيا (Casa da Guiné)عام 1443، والتي تحوّلت لاحقًا إلى مؤسسة دار الهند وغينيا (Casa da Índia e da Guiné)، لتتولى إدارة التجارة، وجمع الضرائب، وتنظيم الرحلات، وتوحيد المعلومات الجغرافية، وقد منح هذا الجهاز البيروقراطي الاستكشاف طابعًا مؤسسيًا، مكّن البرتغال من الحفاظ على تفوقها البحري لأكثر من قرن(b). Boxer, 1969, 89)

إضافة الى ذلك، لا يمكن فصل الدوافع البرتغالية عن المنافسة الأوروبية الناشئة؛ فعلى الرغم من أن البرتغال كانت السبّاقة في هذا الاتجاه، إلا أن دولاً أوروبية أخرى مثل إنجلترا وفرنسا وإسبانيا بدأت

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

تُظهر اهتمامًا متزايدًا بالعالم الخارجي، ولذلك، سارع الملك جواو الثاني (John II of Portugal) (1455-1495م) إلى التفاوض مع إسبانيا، والتوقيع معها على معاهدة توردیسیلاس (Tratado de Tordesilhas)عام 1494(190–176 ,97–85 ,1897 ,Harrisse) ، وهي المعاهدة التي قسّمت العالم الجديد بين القوتين تحت رعاية البابا، مما ضمن للبرتغال احتكار الساحل الإفريقي الشرقي وطريق الهند.(Subrahmanyam, 1997, 63)

يتبين من ذلك، أن الاستكشاف البرتغالي لإفريقيا لم يكن في حقيقته مجرد رد فعل على الظروف الداخلية التي كانت تعاني منها البرتغال، بل كان أيضاً استراتيجية وقائية لفرض الهيمنة قبل أن تُنتزع، تقف ورائها شبكة معقدة من الدوافع والأسباب والأهداف الدينية والسياسية والاقتصادية، التي شكلت في مجموعها الكلي أسس المشروع الاستعماري الأوروبي.

المبحث الثاني: مراحل كشف السواحل الإفريقية ومساهمة الرحالة البرتغاليين فيها:

المرحلة الأولى: تجاوز رأس بوجادور وفتح الساحل الغربي(1445–1415)

تُعدّ الحملة على سبتة عام 1415 الشرارة الأولى التي أطلقت المشروع الاستكشافي البرتغالي، لكن الكشف الفعلي للسواحل بدأ بعد عقد من الزمن. ففي أوائل عشرينيات القرن الخامس عشر، بدأت سفن صغيرة من نوع البارش (barca) والكارافيل -(caravela) التي تميّزت بخفة حركتها وقدرتها على الإبحار ضد الرياح بفضل شراعتها المثلثة المستوحاة من السفن العربية- في استكشاف الساحل الجنوبي الغربي للمغرب. وكان الهدف الأولي هو معرفة ما إذا كانت هناك جزر أو موانئ يمكن استخدامها كقواعد أمامية، أو ما إذا كانت هناك مصادر للذهب والعبيد كما أُشيع في سبتة؛ وقد واجه البحّارة خوفًا نفسيًا عميقًا من بحر الظلام(Mar Tenebroso) ، وهو مصطلح ورد في المصادر البرتغالية للإشارة إلى المحيط جنوب رأس نون (حوالي 28° شمالًا)، حيث اعتقد الأوروبيون أن المياه تغلي، وأن الهواء سام، وأن الوحوش البحرية تنتظر من يجرؤ على الدخول .(Russell, 2000, 105)

استغرق الأمر أكثر من عقد من الزمان جرت فيه العديد من المحاولات المتقطعة قبل أن ينجح جيل إنيز (Gil Eanes) في عام 1434 في تجاوز رأس بوجادور(Cabo Bojador) ، الواقعة عند خط عرض 26° شمالًا؛ وقد وثّق المؤرخ البرتغالي دي زورارا أن إنيز عاد إلى البرتغال ومعه نباتات من الأرض وتراب من الشاطئ، ليثبت أن ما وراء الرأس ليس فراغًا مخيفًا، بل أرضًا صالحة للحياة (Zurara, 1960, 89).

شكّل ذلك الإنجاز نقطة تحول نفسية وتقنية بالنسبة للرحالة البرتغاليين، إذ فتح الباب لهم للقيام بسلسلة من الرحلات السنوية التي كان يمولها الأمير هنري من عائدات ديره في أورديم كريستو (Russell, 2000, 105).

في السنوات التالية، تقدّم البحّارة جنوبًا ببطء، حتي تمكن الرحالة والبحار والمستكشف البرتغالي أفونسو غونسالفيس بالدايا (Afonso Gonçalves Baldaia) (1415-1481م) من الوصول إلى وادي الذهب (Rio do Ouro) عام 1436، حيث ظن أنه وجد مصدرًا للذهب، لكنه لم يعثر سوى على آثار بشرية قديمة؛ وفي عام 1441، عاد أنطونيو غونسالفيس ونونو تريستاو (Nuno Tristão) (1390-1446م) من رحلة استطلاعية بأول مجموعة من الأسرى الإفريقيين- رجل وامرأة-، وقد شكل هذا الحدث البداية الفعلية لتجارة الرقيق الأوروبية عبر المحيط الأطلسي (Zurara, 1960, 112) (Zúquete, 1987, 279) (Affonso et al, 1988, III, p156).

برّر زورارا هذا الفعل بأنه لم يكن القصد من أسرهم الإيذاء، بل لتعليمهم الإيمان وتقديمهم كهدايا للملك(Zurara, 1960, 114) ، وهو خطاب تبريري يعكس الدمج الذي كان قائماً بين المصلحة الاقتصادية والغطاء الديني الذي حظيت به تلك الرحلات الاستكشافية.

بحلول عام 1445، وصلت بعثة بقيادة دينيس دياس (Dinis Dias) إلى نهر السنغال (Castlereagh, 1971, 109)، وقد ظنّه في البداية فرعًا من النيل، وفقًا للمفاهيم الجغرافية البطليمية السائدة آنذاك، وقد أطلق على تلك المنطقة لاحقاً اسم أرض الزنوج(Terra dos Negros) ، وهو أول

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

استخدام أوروبي منهجي لهذا المصطلح لوصف السكان جنوب الصحراء (Diffie & Winius, 1977, 102).

في نفس العام، قاد لانسولوت دي لا كافرير -(Lançarote de Freitas) حاكم جزيرة لانساريون- أسطولًا مكوّنًا من ست سفن لغزو ساحل أرغويم(Arguim) ، حيث أسّس أول حصن تجاري برتغالي في إفريقيا عام 1448؛ وقد حوّل هذا الحصن بعد ذلك إلى مركز لتبادل السلع: القماش والخيول البرتغالية مقابل الذهب والعبيد والجلود الإفريقية.(Vieira de Almeida, 2005, 31)

المرحلة الثانية: عبور خليج غينيا وتأسيس مراكز دائمة(1446–1487)

بعد وصولهم إلى نهر السنغال، واجه البحّارة البرتغاليون تحديًا جديدًا، وهو خليج غينيا (Gulf of Guinea)، الذي يتميّز بتيارات بحرية قوية، وأمطار غزيرة، وسواحل منخفضة يصعب رؤيتها من البحر، الأمر الذي أدّى إلى تباطؤ في تقدم الرحلات الاستكشافية البرتغالية لعدة عقود، لكنه أيضًا دفع إلى تحسين تقنيات الملاحة؛ ففي هذه الفترة، بدأ استخدام الإسطرلاب البحري والربع (Quadrant) لقياس زاوية الشمس وتحديد خط العرض بدقة، مما سمح للسفن بالابتعاد عن الساحل والاعتماد على الملاحة الفلكية.(Cortesão, 1969, Vol. 1, 132)

كان فيرنو دي بو (Fernão do Pó) أول من عبر خليج غينيا عام 1471–1472، حيث اكتشف جزيرة أطلق عليها اسم فورماوزا(Formosa) ، وتُعرف اليوم باسم بيوكو(Bioko) ، ووصل إلى ساحل ما يُسمّى الآن بـــ غانا وساحل العاج، وهناك، لاحظ وجود تجارة ذهب نشطة بين السكان المحليين، فبنى محطة تجارية مؤقتة سمّاها إل مينا(Elmina) ، أي المنجم، نسبة إلى الذهب، وقد تحوّلت هذه المحطة لاحقًا إلى قلعة سانت جورج دا مينا عام 1482، تحت قيادة ديوغو دي أزامبوجا (Diogo de Azambuja)، لتكون أول حصن برتغالي دائم جنوب الصحراء الكبرى.(Blake, 1942, 67)

في تقريره إلى الملك جواو الثاني قام ديوغو دي أزامبوجا بتوثيق تفاصيل بناء القلعة: "استخدمت حجارة جُلبت من البرتغال، وتعاون السكان المحليون في البناء مقابل أدوات حديدية وقماش أحمر " .(Boxer, 1969, 112)لكن العلاقة لم تكن دائمًا سلمية؛ ففي السنة الأولى، اندلعت اشتباكات بين البرتغاليين وسكان القرية المجاورة، مما اضطر ديوغو دي أزامبوجا إلى تعزيز التحصينات، ومع ذلك، أصبحت إل مينا مركزًا تجاريًا حيويًا، حيث بلغت كميات الذهب التي تُصدّر سنويًا ما بين (10-20) طنًا، أي ما يعادل 10% من الذهب الأوروبي آنذاك.(Vieira de Almeida, 2005, 28)

في الوقت نفسه، واصل الرحالة البرتغاليون استكشاف الساحل الشرقي لخليج غينيا؛ ففي عام 1474، وصل لوي دي سوزا (Lopo Gonçalves) إلى خط الاستواء، ليكون أول أوروبي يعبره من الغرب؛ وفي عام 1482، قاد دياجو كاو (Diogo Cão) أول رحلة منظمة لاستكشاف الساحل الجنوبي الغربي لإفريقيا، وقد وصل كاو في هذه الرحلة إلى نهر الكونغو، حيث أقام عمودًا تذكاريًا (Padrão) من الحجر الكلسي، مُزيّنًا بدرع ملكي برتغالي، كرمز للسيادة المسيحية والملكية البرتغالية (Axelson, 1973, 45)، وقد أرسل كاو سفراءً إلى ملك الكونغو، مما فتح بابًا للعلاقات الدبلوماسية والتبشيرية.

في رحلته الثانية (1485–1486)، تقدّم كاو جنوبًا حتى وصل إلى خليج سانتا ماريا (قرب خط عرض 22° جنوبًا)، حيث أقام عمودًا آخر لا يزال موجودًا حتى اليوم في كيب كروس (Cape Cross) في ناميبيا، وقد عاد كاو إلى البرتغال محمّلًا بمعلومات دقيقة عن السواحل، لكنه لم يعثر على النهاية الجنوبية لإفريقيا، وهو الهدف الأسمى لرحلته تلك.(Axelson, 1973, 45)

المرحلة الثالثة: رأس الرجاء الصالح وفتح الطريق إلى المحيط الهندي(1487–1499)

كان الإنجاز الأعظم في مسيرة الاستكشاف البرتغالي هو تجاوز رأس الرجاء الصالح، الذي كان يُعرف سابقًا باسم رأس العواصف(Cabo das Tormentas) ؛ فقد كُلّف بارتولوميو دياز (Bartolomeu Dias)عام 1487 بقيادة أسطول مكوّن من ثلاث سفن لاستكشاف ما وراء آخر نقطة وصل إليها كاو، وبعد رحلة شاقة دامت 16 شهرًا، واجه دياز عاصفة عاتية دفعت سفينته جنوبًا بعيدًا عن الساحل، ثم شرقًا، حتى لاحظ أن اتجاه الساحل قد تغيّر من الجنوب إلى الشمال الشرقي. فأدرك أنه قد

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

تجاوز الطرف الجنوبي لإفريقيا .(Axelson, 1973, 156) وعند عودته، أبلغ دياز الملك جواو الثاني بما وجده، فغيّر الملك اسم الرأس إلى رأس الرجاء الصالح(Cabo da Boa Esperança) ، تفاؤلًا بأن الطريق إلى الهند قد فُتِح أخيراً، وقد وثّق الرحالة البرتغالي جواو دي باروس (João de Barros) في كتابه (عقود من آسيا)(Décadas da Ásia) ، حيث قال: "لم نجد هندًا، لكننا وجدنا الطريق إليها " (Barros, 1552/1988, Vol. 1, 89).

بناءً على تلك المعرفة، أُرسل فاسكو دي غاما (Vasco da Gama) عام 1497 في رحلة تاريخية عبر رأس الرجاء الصالح، وصل بعدها إلى كالكوتا في الهند عام 1498، وفي طريقه الى هناك مرّ بالساحل الشرقي لإفريقيا، حيث زار موزمبيق ومباسا وماليندي، وقد سجل في مذكراته أن موانئ الساحل الشرقي- التي كانت جزءًا من شبكة حضارة السواحيل- تمتاز بمباني حجرية، وكتابة عربية، وتجارة نشطة مع الهند والصين .(da Gama, 1930, p. 74)

تشير بعض المصادر الى أن فاسكو دي غاما كان قد استعان في رحلته تلك للوصول إلى الهند عبر المحيط الهندي بملاح عربي من ماليندي يُدعى (أحمد بن ماجد) رغم أن هذه الرواية محل خلاف بين المؤرخين.(Acevedo et al, 2023, 19)

على كل حال، فقد شكّل ذلك الاكتشاف انعطافة جيوسياسية كبرى، إذ لم يعد الهدف من الاستكشاف هو الذهب الإفريقي فحسب، بل أصبح هدف تلك الرحلات يتضمن السيطرة على تجارة التوابل التي كانت تدرّ أرباحًا هائلة، وبهذا تحولت إفريقيا من غاية إلى وسيلة، ومن مصدر للثروة إلى جسر استراتيجي للوصول الى جنوب آسيا.

المرحلة الرابعة: التماسك المؤسسي والتوسع في المحيط الهندي(1500–1550)

شهدت بداية القرن السادس عشر، غزوات البرتغاليين للمدن الساحلية لشرق إفريقيا، والتي هدفت الى سلب العرب والهنود ما كانوا يتمتعون به من سيطرة تجارية وسياسية على المحيط الهندي، مما تسبب في فقر العديد منهم بالإضافة إلى خراب المدن الساحلية وتدهورها، وقد استمر الحكم البرتغالي الاستعماري الذي كان عنيفا وقاسيا قرابة القرن ونصف القرن قبل أن ينجح السكان المحليون بمساعدة أئمة عمان، الذين كانوا يعتمدون على ملاحين متمرسين في قيادة السفن البحرية في طرد البرتغاليين إلى الجنوب من نهر روفوما.(Newitt, 2005, 78)

بعد رحلة فاسكو دي غاما، دخلت البرتغال مرحلة من التوسع المؤسسي في إفريقيا؛ ففي عام 1500، أُرسل بيدرو ألفاريز كابرال (Pedro Álvares Cabral) بأسطول كبير لتعزيز الحضور البرتغالي في المحيط الهندي، وخلال رحلته- التي اكتشف فيها البرازيل عن طريق الخطأ- زار موانئ شرق إفريقيا، وأقام تحالفات مع بعض الحكام المحليين، وهاجم آخرين، مثل سُفالة(Sofala) ، التي أسس فيها حصنًا عام 1505.(Newitt, 2005, 33)

في تلك الفترة، عيّن الملك مانويل الأول (Manuel I of Portugal) (1469-1521م) أول حاكم عام للهند البرتغالية، وهو فرانسيسكو دي ألميدا (Francisco de Almeida) (1450-1510م)، الذي عمل في هذا المنصب فيما بين سنتيّ (1505–1509)، وقد جعل من جزيرة موزمبيق قاعدة لوجستية رئيسية، ثم خلفه أفرانسو دي ألبوكيرك (Afonso de Albuquerque) (1453-1515م)، والذي عمل هناك في الفترة ما بين سنتيّ (1509–1515)، وقد وضع هذا الأخير استراتيجية السيطرة على النقاط، لا على الأراضي(Uma estratégia de controlo de pontos, não de terrenos) ، أو استراتيجية التثبيت، وهي نهج عسكري يركز على تأمين مواقع استراتيجية رئيسية بدلاً من احتلال مساحات واسعة من الأرض. تهدف هذه الاستراتيجية إلى بسط السيطرة على مناطق حيوية مثل المدن، القرى، الطرق، أو المراكز الاقتصادية والسياسية، فبنى سلسلة من الحصون في كيلوا عام 1505، وفي زنجبار عام 1506، وكذلك في ممباسا عام 1528، مما مكّن البرتغاليين من فرض رسوم جمركية على السفن العربية والهندية .(Subrahmanyam, 1997, 112) وثّق الرحالة دوآرته باربوسا -(Duarte Barbosa) صهر ألبوكيرك- في كتابه الذي كتبه خلال الفترة (1516–1518) أحداث تلك الرحلة، وكتب وصفًا دقيقًا لتلك الموانئ:"سُفالة مدينة صغيرة، لكنها غنية بالذهب الذي يأتي من مناجم داخلية عبر قوافل من

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

الزيمباويين، كما أشـــار إلى أن الســـكان المحليين يكتبون بالعربية، ويتاجرون بالقطن والعنبر والعاج (Barbosa, 1918, Vol. 2, 203).

المرحلة الخامسة: التراجع والانحسار(1550–1698)

بعد فترة طويلة من الهيمنة، بدأ النفوذ البرتغالي في التراجع في القرن الســابع عشــر بســبب عوامل داخلية وخارجية، أما العوامل الداخلية، فقد أدّى اتحاد إيبيريا (1580–1640) الذي جمع التاج البرتغالي والإســباني تحت حكم واحد إلى إهمال المســتعمرات الإفريقية، وعلى الصــعيد الخارجي، ظهرت قوى بحرية جديدة مثل هولندا وإنجلترا، التي هاجمت المراكز البرتغالية× ففي عام 1632، استولى الهولنديون على إل مينا، وفي 1698، فقد البرتغاليون ممباسا لصالح سلطنة عُمان.(Newitt, 2005, 145)

بالرغم من ذلك، ظلّ البرتغاليون متمســكين ببعض الجيوب، مثل أنغولا وموزمبيق، حيث تحول تركيزهم من التجارة البحرية إلى الاستغلال الزراعي والمنجمي، لاسيما عبر تجارة الرقيق الموجّهة إلى البرازيل، وقد اســتمر الرحالة البرتغاليون في توثيق هذه المناطق، مثل أنتونيو دي أوليفيرا كادورنو (António de Oliveira de Cadornega)(1623-1690م)، الذي ألف كتابه (التاريخ العام للحروب الأنغولية) (História Geral das Guerras Angolanas) عام 1681، ووصــف فيه المجتمعات المحلية والموارد الطبيعية .(Cadornega, 1681) بحلول القرن الثامن عشــر، كان الدور البرتغالي في كشف السواحل الإفريقية قد انتهى، غير أن الإرث الضخم الذي تركته الرحلات الاستكشافية البرتغالية في إفريقيا ظل فاعلاً ومؤثراً لاسيما من خلال الخرائط، والمصطلحات الجغرافية، والهياكل الحجرية التي لا تزال شاهدة على هذه الحقبة.

المبحث الثالث: نتائج الكشوفات البرتغالية للسواحل الأفريقية:

بالإضــافة الى كونه انجازاً معرفياً جغرافي وملاحي وأنثروبولوجي، شــكل اســتكشــاف الســواحل الإفريقية من قبل الرحالة البرتغاليين في الفترة ما بين القرن الخامس عشــر والقرن الثامن عشــر الميلادي واحداً من أهم الأحداث والتحولات التي ســاهمت في إعادة تشــكيل البنية الجيوســياســية للقارة الإفريقية، وصياغة أسّس لعلاقات جديدة بين أوروبا وإفريقيا، بل وأسهم في ولادة نظام عالمي جديد قائم على التبادل غير المتكافئ، والهيمنة البحرية، والاستغلال الاقتصادي.

تجلّت آثار هذا الاستكشاف في مستويات متعددة: بدءً من تغيير موازين القوى بين الممالك الإفريقية، إلى إعادة توجيه طرق التجارة القديمة، ومنه إلى فرض نماذج ثقافية ودينية أوروبية، وصــولًا إلى تفكيك بعض الهياكل الاجتماعية التقليدية، ولعلّ ما يميّز الحالة البرتغالية عن غيرها من القوى الاســتعمارية اللاحقة كالهولنديين أو البريطانيين هو أن تدخلها كان في البداية تجارياً وعسكريًا أكثر منه استيطانيًا، مما خلق أنماطًا فريدة من التفاعل بين الأوروبيين والمجتمعات الإفريقية، تراوحت بين التحالف والصــراع، والتبادل والاغتراب، وعليه يمكن اســتعراض أهم الآثار الجيوســياســية والثقافية للاســتكشــاف البرتغالي للسواحل الأفريقية على النحو الآتي:

أولاً: النتائج السياسية: إعادة تشكيل خريطة الممالك الإفريقية

قبل وصــول البرتغاليين، كانت إفريقيا تضمّ شبكة معقدة من الممالك والدول ذات السيادة، مثل مملكة الكونغو في الغرب الأوسط، إمبراطورية مالي وسونغاي في غرب إفريقيا، ومدن السواحيل المستقلة على الساحل الشرقي. وكانت هذه الكيانات مرتبطة بطرق تجارية داخلية وخارجية، أبرزها طريق القوافل عبر الصــحراء الكبرى، الذي يربط تمبكتو بســجلماســة، وطريق المحيط الهندي الذي يربط زنجبار بالهند والصــين. ومع وصــول البرتغاليين، بدأت هذه الشــبكات في الانهيار أو التحوّل؛ ففي غرب إفريقيا، أدّى إنشــاء المحطات التجارية البرتغالية في دواخل إفريقيا إلى تحويل مراكز الثروة من الداخل إلى الســاحل؛ فالممالك الإفريقية التي كانت تعتمد على فرض الضــرائب على القوافل الصــحراوية، مثل ونغارة وسونغاي، شــهدت تراجعًا اقتصــاديًا حادًا، بينما ازدهرت ممالك ساحلية جديدة مثل الأشانتي والداهومي،

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

التي استفادت من التحالف مع البرتغاليين في تبادل الذهب والعبيد مقابل الأسلحة النارية والسلع الأوروبية (Thornton, 1998, 89).

ذكر الرحالة البرتغالي باربوسا أن الزعماء المحليين يطلبون البنادق أكثر من القماش، لأنها تمنحهم سلطة على جيرانهم.(Barbosa, 1918, Vol. 2, 198)

وفي جنوب غرب إفريقيا، لم تتمكن البرتغال من إقامة تحالفات عميقة بسبب قلة السكان وصعوبة التضاريس، لكنها سيطرت على ميناء لواندا عام 1575، وأنشأت مستعمرة أنغولا، التي أصبحت المصدر الرئيسي للعبيد إلى البرازيل؛ وقد حوّل هذا التدخل أنغولا من منطقة نفوذ لمملكة كونغو إلى مركز استغلال مباشر، مما أدى إلى حروب أهلية طويلة الأمد بين الفصائل المؤيدة والمعارضة للبرتغاليين (Heywood, 2007, 62).

أما في الساحل الشرقي، فقد كان التأثير أكثر تدميرًا؛ فمدن السواحل مثل كيلوا ومباسا وزنجبار كانت مراكز حضارية قائمة على التجارة السلمية، وتمتاز بنظام حكم محلي، وكتابة عربية، وعمارة إسلامية مميزة. لكن البرتغاليين، تحت قيادة أفرانسو دي ألبوكيرك، اتبعوا سياسة الإبادة أو الخضوع، فهاجموا كيلوا عام 1505، ودمّروا ممباسا عام 1528، وأقاموا حصونًا عسكرية لفرض رسوم جمركية على السفن العربية والهندية.(Newitt, 2005, 78)

في هذا الشأن، أشار المؤرخ البرتغالي جواو دي باروس (João de Barros) (1496-1570م) الى أن السواحليين لم يكونوا أعداءً في الحرب، بل في التجارة، مما يكشف أن الهدف لم يكن التوسع الإقليمي، بل احتكار الممرات البحرية.(Barros, 1552/1988, Vol. 2, 134)

أدّى هذا التدخل إلى تراجع الحضارة السواحيلية، وانحسار النفوذ العربي والإسلامي في المحيط الهندي، وفتح الباب أمام هيمنة أوروبية لاحقة، كما أن إضعاف هذه المدن سمح لسلطنة عُمان بالاستيلاء على زنجبار وممباسا في أواخر القرن السابع عشر، مما أعاد تشكيل الخريطة الجيوسياسية من جديد، لكن هذه المرة تحت نفوذ عربي متجدد بدعم من القوى الأوروبية الصاعدة وخصوصاً بريطانيا وفرنسا.

ثانيًا: النتائج الاقتصادية: التحول من التبادل التجاري إلى الاستغلال

لعل من أعمق الآثار الاقتصادية للاستكشاف البرتغالي للسواحل الإفريقية يتمثّل في تحويل إفريقيا من شريك تجاري إلى مصدر للموارد البشرية والطبيعية؛ فقبل القرن الخامس عشر، كانت التجارة بين إفريقيا وأوروبا تتم عبر وسطاء مغاربة وعرب، وكانت قائمة على التبادل النسبي: الذهب والعاج مقابل القماش والخيول. لكن البرتغاليين، بوصولهم المباشر إلى الساحل، حوّلوا هذه العلاقة إلى علاقة استخراجية؛ وقد بدأ هذا التحوّل مع تجارة الرقيق، التي تحوّلت من نشاط هامشي في الأربعينيات من القرن الخامس عشر إلى نظام اقتصادي مركزي بحلول القرن السادس عشر. ففي البداية، كان العبيد يُستخدمون في المزارع البرتغالية في جزر ماديرا والأزور، لكن مع اكتشاف البرازيل عام 1500، أصبح الطلب هائلاً. وقد قدّر المؤرخ ديفيد إلتيس (David Eltis) أن البرتغاليين نقلوا أكثر من خمسة ملايين إفريقي عبر المحيط الأطلسي في الفترة ما بين 1501 -1866، أي ما يعادل 45% من إجمالي تجارة الرقيق عبر الأطلسي.(Eltis, 2000, 31)

أدّى الطلب الكبير على تجارة الرقيق إلى عسكرة المجتمعات الإفريقية؛ فالممالك التي كانت تُمارس الحرب لأغراض سياسية أو دفاعية، بدأت تشنّ غارات منظمة لالتقاط الأسرى وبيعهم، فقد ذكر المبشر اليسوعي الإيطالي روبرتو دي نوبيلي (Roberto de Nobili) (1577-1656م) في رسالة من أنغولا عام 1610 أن الحروب لم تعد من أجل الأرض أو الشرف، بل من أجل العبيد الذين يُباعون للبرتغاليين مقابل البنادق(Thornton, 1998, 95) ، ونتيجة لذلك، أصبح الاقتصاد الإفريقي مرتبطًا بسوق خارجي لا يتحكم فيه الإفريقيون، مما أدى إلى تآكل الاستقرار الداخلي وتفاقم الصراعات.

أما في شرق إفريقيا، فقد ركّز البرتغاليون على الذهب والعاج؛ فميناء سُفالة الواقع في موزمبيق الحالية، كان يُعتبر بوابة الذهب من مناجم زمبابوي العظمى، وبحسب الرحالة البرتغالي دوارتي باربوسا، فإن الذهب كان يأتي عبر قوافل من الداخل، ويُباع للبرتغاليين بأسعار زهيدة، ثم يُشحن إلى لشبونة ليُسكّ

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

عملات ذهبية(Barbosa, 1918, Vol. 2, 203) ، وبطبيعة الحال، فقد أدّى ذلك الاستغلال إلى تراجع الإنتاج المحلي، واعتماد الاقتصاد على التصدير الخام، وهو نمط سيستمر لقرون.

لم تقتصر آثار الاستكشاف البرتغالي على إفريقيا فحسب، بل شكلت الحجر الأساس للنظام الرأسمالي العالمي؛ فبفضل السيطرة على السواحل الإفريقية، تمكّنت البرتغال من ربط أربع قارات في مثلث تجاري: (أوروبا، إفريقيا، الأمريكيتين)؛ حيث كانت تُصدّر أوروبا السلع المصنعة إلى إفريقيا، التي تُصدّر العبيد بدورها إلى الأمريكيتين، في حين كانت هذه الأخيرة تُصدّر السكر والقطن والذهب إلى أوروبا، وقد وصف المؤرخ إيمانويل وولرستين (Immanuel Wallerstein) النظام العالمي الناشئ آنذاك بأنه اقتصاد عالمي مهيمن، تتركز فيه الثروة في المركز أوروبا وتُستنزف الموارد من الأطراف: إفريقيا والأمريكيتين (Wallerstein, 1974, 89). كما أن النموذج البرتغال القائم على الحصون التجارية والاحتكار الملكي أصبح نموذجًا يُحتذى به من قبل القوى الأوروبية اللاحقة. فشركة الهند الشرقية البريطانية، وشركة الهند الغربية الهولندية، اعتمدتا على نفس الآليات: السيطرة على النقاط الاستراتيجية، وليس الأراضي الشاسعة (Subrahmanyam, 1997, 112).

ثالثًا: النتائج الدينية: التفاعل الديني والتبشير المسيحي

كما تقدم، فقد كان من بين الدوافع المعلَنة للاستكشاف البرتغالي للسواحل الإفريقية هو التبشير بهدف نشر الإيمان المسيحي، وهو هدف أكّد عليه البابا في المراسيم البابوية التي منحت لملوك البرتغال حق غزو بلاد غير المسيحيين من الوثنيين والمسلمين وتحويلهم الى المسيحية وإنقاذ أرواحهم (Diffie & Winius, 1977, 312)، ولتحقيق هذا الهدف أرسلت الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان الكثير من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، ثم لاحقًا اليسوعيين، إلى الممالك الإفريقية.

أبرز مثال على ذلك، كان في مملكة الكونغو؛ فبعد لقاء دياجو كاو مع ملك الكونغو نزينجا نكو عام 1483، أرسل الملك وفودًا إلى البرتغال لطلب كهنة ومعلمين، وعند اعتلاء ابنه أفونسو الأول العرش عام 1509، أعلن المسيحية دينًا رسميًا، واتخذ اسمًا مسيحيًا، وبعث بابنه هنري إلى روما ليصبح أول أسقف إفريقي، وقد أنشأ أفونسو مدارس لتعليم القراءة والكتابة باللغة البرتغالية، وبنى كاتدرائيات على الطراز الأوروبي.(Hilton, 1985, 67)

بيد أن هذا التبشير لم يكن دائمًا طوعياً أو سلمياً، إذ تكشف المراسلات التبشيرية التي أرسلت إلى الملك البرتغالي مانويل الأول، عن أن الملك أفونسو كان قد اشتكى من أن التجار البرتغاليين يختطفون النبلاء ويبيعونهم كعبيد، حتى من داخل القصر، مما يكشف التناقض بين الخطاب الديني والممارسة الاقتصادية، ومع مرور الوقت، بدأ السكان في مزج المسيحية مع المعتقدات المحلية، فظهرت طوائف مثل الكيمبازو في الكونغو، التي دمجت بين الصليب والطقوس التقليدية.(Thornton, 1983, 112)

أما في أنغولا، فقد قاد اليسوعي غونسالو دي سيلفيرا (Gonçalo da Silveira) (1526-1561م) جهود التبشير في منتصف القرن السادس عشر، لكنه قُتل عام 1561 بعد اتهامه بالسحر؛ ومع ذلك، استمر اليسوعيون في العمل وأسسوا بعثات في كاباندا وماسانغو، حيث علّموا الزراعة الأوروبية واللغة البرتغالية.(Heywood, 2007, 89)

في الساحل الشرقي، كان التبشير أقل نجاحًا بسبب الرسوخ الإسلامي؛ ففي موزمبيق، حوّل البرتغاليون المساجد إلى كنائس، لكن السكان ظلّوا متمسكين بالإسلام في الخفاء، وقد لاحظ الرحالة فرانسيسكو مون (Francisco Mon) عام 1609 أن السكان يظهرون الصليب في النهار، ويصلّون إلى مكة في الليل.(Newitt, 2005, 102)

رابعًا: النتائج الثقافية: التبادل الثقافي وتشكل الهويات المختلطة

رغم طبيعة العلاقة غير المتكافئة، فإن الاستكشاف البرتغالي للسواحل الإفريقية أدى إلى تبادل ثقافي ثنائي الاتجاه، وإن كان غير متكافئ؛ فمن الناحية اللغوية، دخلت كلمات برتغالية إلى لغات إفريقية مثل الكيكونغو والكيمبندو، خاصة في مجالات التجارة والدين، كما أن البرتغاليين تعلّموا مفردات إفريقية لتسهيل التواصل؛ ومن الناحية الاجتماعية، ظهرت مجتمعات مختلطة (mestiço) من زواج التجار

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

والجنود البرتغاليين من نساء إفريقيات؛ وقد لعب هؤلاء المستيزو دورًا وسيطًا مهمًا، إذ كانوا يتحدثون اللغتين، ويفهمون الثقافتين، ويديرون التجارة في المناطق الداخلية. وقد منحهم البرتغاليون امتيازات خاصة، مثل حق امتلاك الأراضي وحمل الأسلحة، مما خلق طبقة اجتماعية جديدة بين الحاكم والمحكوم (Vansina, 1990, 178).

في المقابل، أثّرت الثقافة الإفريقية على البرتغاليين أنفسهم. ففي لشبونة، انتشرت الموسيقى الإفريقية، وأصبح امتلاك العبيد رمزًا للثراء. كما أن بعض البرتغاليين تبنّوا عادات إفريقية في الطعام واللباس، خاصة في المستعمرات.

ترى الباحثة أن الاستكشاف البرتغالي للسواحل الإفريقية قد ساهم في إعادة كتابة التاريخ الإفريقي من منظور أوروبي؛ فالمصادر والكتب والوثائق والتقارير البرتغالية التي وثقت للرحلات الاستكشافية البرتغالية للسواحل الإفريقية- مثل كرونيكا زورارا أو مذكرات باربوسا- قدّمت إفريقيا كقارة بدائية تحتاج إلى جهود خارجية لدفعها الى التمدن والتحضر، وهو خطاب استعماري هيمن على الدراسات الأوروبية حتى القرن العشرين، ومع ذلك، فإن هذه المصادر تبقى اليوم من أهم الوثائق التي تسمح للمؤرخين المعاصرين بإعادة بناء التاريخ الإفريقي من الداخل، عبر قراءة نقدية لهذه السرديات.

الخاتمة

لقد كان تحليل دور الرحالة البرتغاليين في كشف السواحل الإفريقية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ضمن هذا البحث أكثر من مجرّد استرجاعٍ لأحداثٍ تاريخية ماضية، من حيث شكل محاولة جديدة تضاف الى العديد من المحاولات السابقة والرامية الى فهم الآليات التي أُسّس بها النظام العالمي الحديث، والتفاعلات المعقدة التي شكّلت مصائر القارات لقرونٍ لاحقة، إذ لا يمكن فصل ماضي الاستكشاف البرتغالي عن حاضر العلاقات بين أوروبا وإفريقيا، خاصة وأن الكثير من التحديات المعاصرة من التبعية الاقتصادية إلى صراعات الهوية لها جذورها الضاربة التي تعود الى تلك الحقبة.

بناءً على ذلك، توصل البحث الى مجموعة من النتائج التي يمكن إجمالها على النحو الآتي:

1. أكدت الدراسة أن الاستكشاف البرتغالي للسواحل الإفريقية كان مشروعًا سياسياً واقتصادياً ودينياً متكاملًا، دُفع إليه بفعل تحوّلات داخلية في البرتغال كضيق المساحة وانحسار الفرص البرية، وتحولات خارجية، كسيطرة الوسطاء المسلمين على طرق التجارة
2. برهنت الدراسة أن كشف السواحل الإفريقية لم يكن نتيجة رحلات فردية معزولة، وإنما كان مشروعًا متكاملاً تبنته الدولة البرتغالية ودعمته المؤسسة الدينية، وتداخلت فيه أغراض الاستكشاف الجغرافي مع أهداف التجارة والتبشير والتوسع السياسي والعسكري.
3. بينت الدراسة أن استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة عام 1415م، مثّل نقطة الانطلاق الفعلية لحركة الكشوف الجغرافية البرتغالية، إذ مهد الطريق لتتابع الرحلات البحرية على امتداد الساحل الغربي لإفريقيا، وصولاً إلى اسكشاف جزر المحيط الأطلسي.
4. أوضحت الدراسة أن الرحالة البرتغاليون مثل جيل إنيز، دياجو كاو، بارثولوميو دياز، وفاسكو دي غاما وغيرهم لعبوا أدوارًا محورية في الاستكشافات البرتغالية للسواحل الإفريقية، فضلاً عن عملهم ضمن تلك الرحلات كدبلوماسيين وتجار وجنود، مما يعكس الطبيعة المتعددة الأوجه للاستكشاف البرتغالي لإفريقيا.
5. كما أكدت الدراسة أن رحلات الاستكشاف البرتغالي للسواحل الإفريقية ترتب عليها نتائج سياسية عميقة، فقد أدّت تلك الكشوفات إلى تفكيك بعض الممالك الإفريقية وصعود أخرى، وانهيار حضارة السواحيل تحت وطأة الهيمنة العسكرية البرتغالية.
6. كشفت الدراسة أن الكشف البرتغالي للسواحل الإفريقية حوّل إفريقيا من شريك تجاري إلى مصدر للموارد البشرية (العبيد)، والطبيعية (الذهب، العاج)، مما أسّس لاقتصاد عالمي قائم على الاستغلال غير المتكافئ .
7. كما بينت الدراسة أن الكشف البرتغالي للسواحل الإفريقية أدى إلى تفاعل معقّد بين المسيحية والإسلام والمعتقدات المحلية، وإلى ظهور هويات مختلطة، رغم هيمنة الخطاب الاستعماري الأوروبي.

 Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

Compliance with ethical standards

Disclosure of conflict of interest

The authors declare that they have no conflict of interest.

قائمة المراجع:

1. Acevedo, J.; Bénard, I. & Müller, J. (2023). Indian Ocean Arab Navigation Studies Towards a Global Perspective: Annotated Bibliography and Research Roadmap. TN: RUTTER Technical Notes Series. No. (2), Version (5), Lisbon (4).
2. Castlereagh, D. (1971). Encyclopedia of Discovery and Exploration - The Great Age of Exploration. London: Aldus Books.
3. Affonso, Domingos de Araújo; Valdez, Ruy Dique Travassos & da Sylva, J. A. Telles (1988). Livro de Oiro da Nobreza. 2ª Edição. Lisboa. 1988.
4. Al-Salimi, A. & Jansen, M. (2018). Portugal in the Sea of Oman: Religion and Politics : Research on Documents. Hildesheim: Georg Olms Verlag.
5. Axelson, E. (1973). The Portuguese in South-East Africa, 1488–1600. Johannesburg: Witwatersrand University Press.
6. Barbosa, D. (1918). The Book of Duarte Barbosa: An Account of the Countries Bordering on the Indian Ocean and Their Inhabitants (Vol. 2) (M. L. Dames, Trans.). London: Hakluyt Society.
7. Barros, J. de. (1988). Décadas da Ásia (Vol. 1–2). Lisbon: Junta de Investigações Científicas. (Original work published 1552).
8. Blake, J. W. (1942). European Beginnings in West Africa, 1454–1578. London: Longmans, Green and Co.
9. Boxer, C. R. (1969). The Portuguese Seaborne Empire, 1415–1825. London: Hutchinson.
10. Cadornega, A. de O. (1940–1942). História Geral das Guerras Angolanas (Vol. 1–3). Lisbon: Agência Geral das Colónias. (Original work written 1681).
11. Cortesão, A. (1969). The Nautical Chart of 1424 and the Early Discovery and Cartographical Representation of America (Vols. 1–2). Coimbra: Junta de Investigações do Ultramar.
12. da Gama, V. (1930). The Voyage of Vasco da Gama to India, 1497–1499 (E. G. Ravenstein, Trans.). London: Hakluyt Society.
13. Diffie, B. W., & Winius, G. D. (1977). Foundations of the Portuguese Empire, 1415–1580. Minneapolis: University of Minnesota Press.
14. Eltis, D. (2000). The Rise of African Slavery in the Americas. Cambridge: Cambridge University Press.
15. Fernandes, Fátima Regina, (2000).Nobles and the Crown on the Eve of Portugal's Atlantic Discoveries. Mediterranean Studies, Vol. 9).
16. Jayne, K. G. (1967). Vasco da Gama and His Successors, 1460-1580. (Methuen & Co. Ltd. London).
17. Harrisse, H. (1897). The Diplomatic History of America: Its first chapter 1452—1493—1494. London: Stevens.
18. Heywood, L. M. (2007). Central Africans, Atlantic Creoles, and the Foundation of the Americas, 1585–1660. CFernandes, Fátima Regina, (2000).Nobles and the ambridge: Cambridge University Press.
19. Hilton, A. (1985). The Kingdom of Kongo. Oxford: Oxford University Press.
20. Newitt, M. (2005). A History of Portuguese Overseas Expansion, 1400–1668. London: Routledge.
21. Russell, P. E. (2000). Prince Henry 'the Navigator': A Life. New Haven: Yale University Press.
22. Strandes, Justus (1968). The Portuguese in East Africa. Nairobi: EALB.
23. Subrahmanyam, S. (1997). The Career and Legend of Vasco da Gama. Cambridge: Cambridge University Press.
24. Thornton, J. (1983). The Kingdom of Kongo and the Atlantic World, 1400–1800. Cambridge: Cambridge University Press.
25. Thornton, J. (1998). Africa and Africans in the Making of the Atlantic World, 1400–1800 (2nd ed.). Cambridge: Cambridge University Press.
26. Vansina, J. (1990). Paths in the Rainforests: Toward a History of Political Tradition in Equatorial Africa. Madison: University of Wisconsin Press.
27. Vieira de Almeida, J. (2005). A Expansão Portuguesa e o Comércio de Escravos na África Ocidental. Lisbon: Centro de Estudos de História Ultramarina.
28. Wallerstein, I. (1974). The Modern World-System I: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century. New York: Academic Press.
29. Zúquete, Afonso Eduardo Martins (1987). Armorial Lusitano. Editorial Enciclopédia. 3ª Edição. Lisboa.
30. Zurara, G. E. de. (1960). Crónica dos feitos da Guiné. Lisbon: Academia Portuguesa da História. (Original work written ca. 1453).

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of **AJASHSS** and/or the editor(s). **AJASHSS** and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions،or products referred to in the content.

Copyright: © 2026 by the authors. Submitted for possible open access publication under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).